أ.زازوي موفق أ.بن معمّر عبد الله	مستقبل الحضارات: صدام أم حوار؟ (مشروع جارودي بديلا لأطروحة هنتنغتون)	كلية الآداب والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية قسم الفلسفة - جامعة تلمسان -

لقد تحدث روجي جارودي عن الحوار بين الحضارات في كتاب خاص جاء بهذا العنوان وفي كتب أخرى أيضا، غير أن الأهمية التي حضي بها هذا الخطاب ظلت محدودة، فلم يثرما ستثيره أطروحة الصدام التي طلع بها علينا صموئيل هنتنغتون في بداية التسعينيات، أي بعد عقدين من صدور كتاب « حوار الحضارات»(1977)، ربما لأن الحوار يعني السلام والتآخي والتعاون. وهذا ينسجم مع جوهر الطبيعة الإنسانية الخَيِّر أما الصدام فهو عرض بالنسبة لهذه الطبيعة، لهذا كان من البديهي أن يلاقي هنتنغتون تلك الردود الحادة. غير أن الأحداث التي تلت مقالته وكتابه، فيما بعد (صدر سنة 1996)، حول تلك النظرية، يساوره الاعتقاد بصحتها؛ فالحادي عشر من سبتمبر وما تلاه من مواقف عدائية تجاه المسلمين في الغرب بوجه عام وفي الولايات المتحدة بوجه خاص، واحتلال أفغانستان والعراق تحت مظلة محاربة الارهاب، وتفجيرات مدريد ولندن، والحملة الاعلامية المغرضة ضد شخص الرسول الكريم، وأخيرا ادعاءات البابا حول الإسلام... كلها أحداث يبدو أنها تسند منطق هنتنغتون. لكن النظرة العميقة والتحليل الموضوعي الشامل بإمكانهما أن يكشفا تهافت ذلك المنطق وزيف خطاب الصدام؛ لأن هذا الأخير لا يخدم إلا أولئك الداعين إليه والنافخين في ناره. أما الحوار فهو أمل الإنسانية، ولهذا فإن نظرية جارودي هي البديل في رأينا. وإليها ينبغي أن يتوجه الاهتمام الآن.

ومن أجل تأكيد هذا الافتراض ينبغي أولا عرض أفكار أطروحة الصدام لهنتنغتون ومشروع الحوار لجارودي، ثم نقوم بتحليل مسلماتهما والمقارنة بينهما. ولما كان الحوار هو البديل عن الصدام فقد طرحنا مجموعة من الشروط، نعتقد بضرورتها من أجل انجاحه.

-1 خلاصة رأي هنتنغتون في صدام الحضارات

نشرت صحيفة شؤون خارجية في صيف 1993 لصمويل هنتنغتون مقالا بعنوان «صدام الحضارات؟» الذي أثار جدلا واسعا. هذا المقال سيجري تطوير وتنظيم وإكمال الموضوعات والأفكار التي جاءت فيه، في كتاب «صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي». وأفكار المقال والكتاب فيما يذكر هو نفسه كان قد عبّر عنها قبل ذلك.

الكتاب يتكون من اثني عشر فصلا تتوزع على خمسة أجزاء، تصب جميعا في تطوير وتوسيع نتائج الافتراض الرئيس للكتاب وهو: إن الثقافة أو الهوية الثقافية والتي هي في أوسع معانيها الهوية الحضارية، هي التي تشكل نماذج التماسك، والتفكك، والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة.

إن هذا الطرح يعتبره هنتنغتون تفسيرا لتطوير السياسة العالمية بعد الحرب الباردة؛ إنه من المأمول أن يقدم إطارا تفسيريا، أو نظرية في النظرة إلى السياسة العالمية تكون ذات معنى بالنسبة للباحثين ومفيدة بالنسبة لصانعي السياسة. إن المدخل الحضاراتي في تفسير السياسة العالمية في نظر صاحبه لا يدعي تفسير كل شيء، في السياسة العالمية، إن قيمته تكمن في تزويدنا برؤية أكثر دلالة وأكثر نفعا نرى من خلالها التطورات الدولية بشكل أفضل من البدائل النظرية الأخرى. وهو يقر بحدود نظرية صدام الحضارات هذه، «فليس هناك - فيما يقول- إطار نظري صالح إلى الأبد.»1

-يرى هنتنغتون أن السياسة العالمية لما بعد الحرب الباردة التي ستقوم على التعدد الحضاراتي، لا على الاختلاف الأيديولوجي كما كان سائدا إبان الحرب الباردة حيث

الثنائية القطبية وانقسام العالم إلى ثلاثة أجزاء: القطب الليبرالي، القطب الشيوعي، ودول عدم الانحياز.

- إن السياسة العالمية ولأول مرة في التاريخ، تصبح متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات: «في عالم ما بعد الحرب الباردة، فإن أكثر الاختلافات أهمية بين الشعوب ليست إيديولوجية ولا سياسية ولا اقتصادية. إنها ثقافية أو تراثية.»2 إن محورا أساسيا في السياسة العالمية لعالم ما بعد الحرب الباردة هو التفاعل بين القوة والثقافة الغربية مع القوة والثقافة غير الغربية لتلك الحضارات الغربية وغير الغربية (خاصة الكونفوشية والإسلامية). وتبرز قوة هذه الحضارات مع الهبوط النسبي لقوة الغرب الآن في مواجهتها.

- المدخل الحضاراتي يعتبره هنتنغتون نظرية أو نموذجا أو برادجم بحسب مفهوم طوماس كون، وقيمته تكمن في 3:

* التنظيم والتعميم حول الحقيقة؛
* فهم العلاقات السببية بين الظواهر؛
* توقع وربما التنبؤ بالتطورات المستقبلية؛
* تمييز ما هو هام وما هو غير هام؛
* توضيح الطريق الذي ينبغي أن نسلكه حتى نحقق أهدافنا.

هذا البرادجم الحضاراتي يقدمه كبديل للأطر النظرية العديدة السابقة كنظرية العالمين: الغرب وغير الغربيين أو الشرق والغرب. والنظرية الواقعية أو النظرية الدولاتية التي تؤكد على دور الدول في الشؤون الدولية. ونظرية الفوضى التي تؤكد تمزق الدول، وتفاقم النزاعات، وظهور المافيا الدولية، والإرهاب... لكن النظرية الرابعة ربما كانت أبرز ما انتقده هنتنغتون وهي نظرية العالم الواحد أو نظرية نهاية التاريخ لصاحبها فرانسيس فوكوياما والقائمة على أن فكرة النهاية في التطور الأيديولوجي للبشرية وعملية التعميم الإنساني للديمقراطية الليبرالية الغربية على أنها الشكل النهائي للحكومة الإنسانية، والنتيجة

انبثاق عالم واحد ومنسجم ومتناغم نسبيا. غير أن الصراعات التي نشبت في التسعينيات بين جماعات من حضارات مختلفة تدحض نظرية نهاية التاريخ كما يرى هنتنغتون.

بصفة عامة إن كل نظرية من هذه النظريات الأربع- في نظره- تصيب جانبا واحدا من الحقيقة ولا تقول كل الحقيقة، وتطرح بالتالي صعوبات لا مخرج منها إلا بتقديم بديل لها يقوم على تصوير العالم في سبع أو ثماني حضارات، أو بالأحرى تصور العالم على أنه عالم غربي وعوالم غير غربية. وأن النزاعات الأكثر تهديدا للاستقرار بين الدول هي تلك التي تقع بين الدول أو الجماعات من حضارات مختلفة، وإذا كانت الدول لا زالت الوحدات الأكثر أهمية في الشؤون الدولية، فإن مصالحها وصراعاتها تتشكل بعوامل ثقافية وحضارية.

- ما يجعل النظرية الحضاراتية في نظر صاحبها الأكثر ملاءمة تلك التطورات الهامة التي حصلت بعد نهاية الحرب الباردة والتي كان بالمقدور التنبؤ بها في ضوء تلك النظرية، من أمثلتها: سقوط الإتحاد السوفييتي ويوغسلافيا، والحروب الدائرة في أقاليمهما السابقة، صعود الأصولية الدينية في مناطق العالم، الجهود التي تبذلها الدول الإسلامية والكونفوشية للحصول على الأسلحة النووية. التشريع الألماني الجديد الذي يقلص إلى حد كبير جدا قبول اللاجئين ...

- الحضارات كانت دائما تشكل التاريخ. والحضارة والثقافة شيء واحد. الحضارات لها مقومات موضوعية كالدم، اللغة، الديانة، نمط الحياة، غير أن أكثرها أهمية في تحديد الحضارة الدين عادة، ويأتي بعده مقوم اللغة. أما الحضارات التي تنطبق عليها نظرية الصدام فهي: الصينية، واليابانية، والهندية، والإسلامية، والغربية، والأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية، والحضارات الإفريقية (محتملة).

- الغرب له صورتان بالنظر إلى العلاقة مع الحضارات الأخرى: الأولى هي الهيمنة المتفوقة والمنتصرة والشاملة غالبا للغرب. هيمنة تأكدت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وهي تتم ماليا وصناعيا وعسكريا وعلميا وإعلاميا.

- والثانية هي حالة الحالة الغربية في حالة اضمحلال، بمعنى أن نصيبها من القوة العالمية السياسية والاقتصادية والعسكرية آخذ في الهبوط بالقياس إلى قوة الحضارات الأخرى.

- إن هبوط الغرب النسبي يقابله صعود الحضارات الآسيوية ببزوغ الصين كقوة اقتصادية. والحضارة الإسلامية بنموها السكاني. ويترتب عن هذه التحولات في القوة بين الحضارات إلى أنها تؤدي الآن وسوف تؤدي إلى إحياء وتأكيد الذات الثقافي المتزايد للمجتمعات غير الغربية ورفضهم المتزايد للثقافة الغربية، وتحديهم لها.

- إن العالم الحضاراتي هو الذي يحدد بنية الحضارات. ففي عالم ما بعد الحرب الباردة تحدد الدول علاقاتها بالحضارة كدول أعضاء، أو دول أساسية هي التي تعتبر المصدر الرئيس أو المصادر الرئيسة لثقافة الحضارة، أو دول وحيدة (تفتقر إلى التجانس الثقافي مع مجتمعات أخرى)، أو دول منقسمة أو متصدعة (تتضمن جماعات رئيسة من حضارتين أو أكثر) مثل الهند والفليبين، وجمهوريات البلطيق...، أو دول ممزقة، مثل تركيا، لها ثقافة وحيدة مهيمنة والتي تضعها في حضارة واحدة غير أن قادتها يريدون تغييرها إلى حضارة أخرى (أتاتورك ومحاولته تغريب تركيا العثمانية الإسلامية).

- بما أن العالم بعد الحرب البادرة، هو عالم حضاراتي، فإن مستقبل العلاقات بين الدول والجماعات من حضارات مختلفة لن تكون وثيقة وغالبا ستكون علاقات عدائية. وهذه العلاقات العدائية يمكن تصنيفها في ثلاثة تصنيفات:

أولا: الحضارات المتحدية، وهي الحضارات الإسلامية والحضارة الصينية. وعلاقاتها مع الغرب تكون غالبا عدائية جدا.

ثانيا: الحضارات الأضعف، تتمثل في أمريكا اللاتينية وإفريقيا والتي تعتمد على الغرب. علاقاتها مع الأخير تتضمن مستويات دنيا من الصراع.

ثالثا: الحضارات المتأرجحة، وهي الحضارات الروسية واليابانية والهندية، وهي التي تتأرجح بين الغرب والحضارات المتحدية من الجهة الأخرى.

والصراع الحضاراتي سيأخذ شكلين:

أ- على المستوى المحلي أو المستوى الجزئي: الصراعات على هذا المستوى هي صراعات خط الصدع، توجد بين الدول المتجاورة من حضارات مختلفة، وبين جماعات من حضارات مختلفة في الدولة، وبين جماعات تحاول أن تبني دولة جديدة مثلما هو الحال في الاتحاد السوفييتي سابقا أو في يوغسلافيا. وصراعات خط الصدع بصفة عامة ستكون ظاهرة بين المسلمين وغير المسلمين.

ب- على المستوى الكلي: الصراعات على هذا المستوى تكون بين الدول الأساسية، أي أنها تحدث بين الدول الرئيسة للحضارات المختلفة.

أمام هذا المستقبل الصدامي للحضارات ماذا ينبغي أن نعمل؟

- من أجل الحد من الصدام الذي يهدد الغرب والعالم يجب القبول بعالم متعدد الثقافات، ورفض العالمية الثقافية. وأمن العالم يتوقف على تعايش ثقافي، يتطلب البحث عن القاسم المشترك في معظم الحضارات. «صدام الحضارات هو التهديد الخطير للسلام في العالم، ونظام دولي مؤسس على الحضارات هو الضمان الأكيد ضد حرب العالم» 4. بهذا يختتم هنتنغتون كتابه.

-2 ملخص آراء جارودي

لقد كتب «حوار الحضارات» في وقت مازال العالم يتعامل فيه بواقع ثنائي القطب. وهو مشروع مستقبلي للحضارة أو الثقافة أو الإنسانية، يقوم على فرضية أساسية وهي أن

سعادة البشرية ككل أو العالم الغربي والعالم اللاغربي تتوقف على النظر إلى الثقافة أو الحضارة من جميع أبعادها أبعاد الإنسان، والتي تحتاج إلى مساهمة كل الثقافات الإنسانية في إطار التعاون والتكامل.

- إن حوار الحضارات يؤكد أن المفهوم السمفوني للثقافة هو الذي يجب أن يكون بديلا لعهود الهيمنة الغربية التي ينتقدها جارودي بشدة، وبالتالي فإن الخروج من الطريق المسدود الذي قادت إليه الحضارة الغربية يتوقف على حوار حقيقي بين جميع الحضارات.

- والكتاب يتألف من مقدمة يتحدث فيها عن تجربته مع الإسلام في الجزائر سنة 1941 م، التي يعتبرها بداية لحوار خصيب يمتد إلى ثقافات أخرى. هذا الحوار الذي يكون بديلا لهيمنة الغرب الثقافية المفروضة خلال أربعة قرون من الاستعمار. ومدخل فيه يعتبر الغرب عرضا طارئا، وهذه -فيما يرى- هي المسلّمة الأولى في كل اختراع يتناول المستقبل. إن الغرب هو مصدر الشرور التي أصابت الإنسان، وتفوقه لا يرجع إلى تفوق ثقافته بل إلى تفوقه التقني والعسكري. وإضافة إلى المقدمة والمدخل يضم الكتاب خمسة فصول يمكن عرض أفكارها كما يلي:

- إن الحضارة الغربية لا يمكن فصلها عن منابعها الشرقية، فهي تدين إلى إسهامات وادي الرافدين ومصر أي آسيا وإفريقيا.

- وما يسمى بمعجزة عصر النهضة، والمعجزة اليونانية هما من أوهام الغرب. فنهضة الغرب ارتبطت بالرأسمالية والاستعمار وإنكار وهدم الثقافات اللاغربية.

- «المهمة التمدينية» التي هي ذريعة أنصار الاستعمار ليست إلا زيفا، ذلك أن التمدين صاحبه قضاء منهجي على ثقافة المستعمر.

- الغرب كان بإمكانه أن يدخل في حوار مع الحضارات اللاغربية لكنه أضاع فرصا حقيقية وعديدة، وذلك عندما أباد السكان الأصليين للمستعمرات، وقضى على حضارات بأكملها (حضارة الأزتيك، المايا)، ولما صور التوسع العربي بدء من القرن الثاني

الميلادي على أنه تدفق للهمجية الآسيوية على الغرب. وثمة فرصة أخرى أضاعها أيضا لما احتقر العِلم الصيني.

- إن على الغرب أن يتدارك الأمر في القرن الواحد والعشرين ويدخل في حوار حقيقي يستفيد فيه- مثلما استفاد في الماضي – من إسهامات الثقافات الإسلامية والهندية والإفريقية والأمريكية اللاتينية... فرسالة القرن الواحد والعشرين هي القضاء على العوائق الأخيرة، وفي المضي إلى النهاية في تحقيق فن عالمي وثقافة عالمية.

- حوار الحضارات ينبغي أن يقوم على تكامل أبعاد الثقافة كلها المادية والروحية من تقنية وعلم وفن ودين. ومن شأنه أن يزيل الوهم الغربي بتفوقه ومطلقيته، ويخلق الوعي بنسبية رؤية الغرب إلى العالم القائمة على أساس مادي كمي.

- هناك عدة تجارب قامت على أساس الاستفادة من ثقافة الأخر، يمكن الاستفادة منها وأخذها كنماذج حققت حوار الحضارات كالتجربة الاشتراكية الجماعية في تنزانيا التي تجمع بين الاشتراكية والديمقراطية، بين المحلي وإسهام الآخرين، وميثاق الجزائر الذي تتوافق فيه الاشتراكية مع الإسلام. والثورة والثقافية الصينية التي هي الثورة الاشتراكية الوحيدة التي لم تمتح مقدماتها من فردية الثورات البرجوازية الغربية. إن الثورة الثقافية الصينية هي تجسيد للتوافق بين الماركسية والثقافة الصينية. وكذلك هناك إسهام لاهوتي التحرر بأمريكا اللاتينية، حيث يتلاقى عندهم مطلب الإيمان الآتي بالرغم من ذلك من الغرب مع المسيحية مع المطلب الثوري في شكله النوعي الذي ارتداه في نصف القارة اللاتيني من أمريكا. إضافة إلى محاولات تركيبية أخرى.

- حوار الحضارات يجري على مختلف الأصعدة فعلى الصعيد الاقتصادي ينبغي تغيير مفهوم التنمية بالمفهوم الغربي (التنمية من أجل التنمية)، على الصعيد السياسي باعتماد ديمقراطية المشاركة لا الديمقراطية النيابة التمثيلية. وعلى الصعيد الثقافي وذلك

بالإخصاب المتبادل بين حكمة، وكذلك ثورات آسيا والإسلام وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وبين ما يماثلها في الغرب.

3- الحوار بدل الصدام

بعدما عرضنا الأفكار الرئيسة لكل من الطرحين نأتي الآن إلى التحليل المقارن بين مسلماتهما وأهدافهما وأفكارهما. وهدفنا – كما سبق أن أشرنا- هو البرهنة على ملاءمة نظرية الحوار التي وحدها – إذا توفرت النية الصادقة وشروط الحوار العادلة كما سنبين ذلك لاحقا- تستطيع أن تجنب الإنسانية أفقا مظلما ومطبات لا يستطيع أحد أن يتنبأ بنتائجها.

3-1- من صدام السياسي إلى حوار الفيلسوف

لا يخالفنا الرأي أحد إذا زعمنا منذ البداية أن التقابل بين أطروحة الصدام ومشروع الحوار بين الحضارات، هو بالأساس تقابل بين خلفيتين فكريتين مختلفتين؛ فنحن في الواقع إزاء التقابل بين السياسي الإستراتيجي والفيلسوف، وشتان بين هذا وذلك إذا ظل الفيلسوف محافظا على جوهر الفلسفة الذي هو النقد، حتى لو مارس السياسة. فهنتنغتون هو أستاذ العلوم السياسة بجامعة هارفارد، وهو من أشهر المفكرين الإستراتيجية في الولايات المتحدة. وبالتالي فإن موقعه كمنظر للإستراتيجية الأمريكية لا بد أن يؤثر على أحكامه ومنطلقاته التي تتحيّز بالضرورة لصالح بلاده بشكل خاص والغرب بشكل عام. ورغم تأكيده على علمية أطروحته، فإن هناك ثغرات منهجية تتخلل تحليلاته، سنأتي على ذكرها في حينها.

هذا إلى جانب تواضع معرفته بالحضارات اللاغربية التي تحدث عنها خاصة الإسلامية، فهو «ليس دارسا للفكر والقيم الإسلامية»5، يقول أحمد شبلي، ويوجد غيره عاب عليه ذلك. لقد تساءل فريدريك أونسل إن كان هنتنغتون يعرف حقيقة أغلب البلدان والمناطق التي أراد دراستها.6

والأمر مختلف بالنسبة لروجيـــ جان شـارل جارودي فهو الفيلسوف الذي لا تعوزه أداة النقد. والدليل على ذلك أنه في الوقت الذي ينتقد الهيمنة الغربية بشدة ويكشف مثالبها، لا بل ويصل إلى حد اتهام الغرب بأنه «الشر الأبيض» في الوقت ذاته ينتقد الاشـتراكية رغم أنه ظل ماركسيا سنوات عديدة من قبل أن يعتنق الإسلام عام 1982.

علاوة على أداة النقد التي يمتلكها الفيلسوف جارودي فهو ينطلق في مشروعه من تجربة حياة غنية بمشـاهدات إنجازات الإنسان في مختلف بقاع الأرض، وقراءته للكتب المقدسـة، والتقائه بشخصيات علمية وأدبية وفنية وفكرية وسياسية من مختلف شعوب العالم غير الغربي.

إن هذه التجارب التي انضافت إلى فكر الفيلسـوف – الذي لم يكن مع ذلك بعيدا عن السياسة، فقد انتخب عام 1945 نائبا بالجمعية الفرنسية، وصار نائبا لرئيسـها بعد ذلك ثم انتخب عضوا بمجلس الشـيوخ- تلك التجارب كان لها الفضل في يقين جارودي بفكرة مشروع حوار الحضارات.

ورغم اعترافه بأن معرفته لا زالت سطحية بالثقافات اللاغربية، فإنه يقر بتعليمه الكثير منها، يقول: «إنني أشـعر بأنني أكتب في ضوء معرفتهم ويبدو لي أنهم ينظرون إلي ويحكون عني. وأن على عاتقي تقع مسؤولية الإفصاح عما علموني من ثقافات لا غربية وعمّا يترتب علينا أن نمتحه منها لنبني المستقبل معهم وأن لهم الحق بصرامة الطلب، لأنهم أعطوني كثيرا، ومنحوني، بادئ ذي بدء معنى حياة الإنسـانية ومشروع الأمل.»7

إن صاحب مشروع حوار الحضارات هو الفيلسوف الملتزم بقضايا الإنسان ككل، الفاضح للزيف مهما كان مصدره، حتى لو تعلق الأمر بالحضارة والمجتمع اللذين ينتمي إليهما ودافعه وراء ذلك هو الخوف على الجميع من نتائج المسار الذي خطه ولا زال يسير فيه الغرب. وهذا كاف لأن يجعله يتميز عن السـياسي الإسـتراتيجي. «إن مسألة تغيير

مشـروع الحضارة هو اليوم مطروح بإلحاح مخيف، في حين ليس هناك ثمة مسؤول سياسي لأي حزب من الأحزاب أشار إلى هذا الخطر في أي من البلدان الغربية»8.

والخوف دافع أيضا لصاحب صدام الحضارات لكنه خوف السياسي على مصالحه من تهديد خارجي. إنه خوف الغرب، بل قل الولايات المتحدة، من التحدي الإسلامي والكونفوشي. لذلك فهو «يحاول خلق عدو خارجي للولايات المتحدة، فكأنه بحكم غريزته الغربية يعد العدة لحرب قادمة، أو كأنه يخشى أن تتوانى الولايات المتحدة في الاستعداد»9. لكن هذا الخوف من الإسلام سيتحول إلى حالة مرضية، ستتجلى أعراضها بعد الحادي عشر من سبتمبر عام 2001. والخطورة في أن الإسلاموفوبيا هذه ستسود ليس في الوعي النخبوي لدى الساسة والمثقفين الغربيين بل في الوعي الشعبي الغربي عموما.

إن سياسة خلق عدو معين التي لا يخرج هنتنغتون عن إطارها، هي التي تغذي الصراع بين الحضارات فيما يرى ماهر الشريف (أستاذ التاريخ بجامعة دمشق) . يبرهن عليه التناقض الذي لاحظه دريدا : لقد أعلن فوكوياما في صيف 1989، نهاية التاريخ مع انتصار الغرب ونموذجه الليبرالي، مع أن جدار برلين لم يكن قد سقط بعد، كان لا يزال يبقى سنتين قبل اختفاء الاتحاد السوفيتي، وفي صيف 1993، يتنبأ هنتنغتون بتحول الصراعات المستقبلية إلى صراعات بين الحضارات. لكن هذه المرة كان كل شيء قد تغير بشكل جذري. كما لو أن الغرب كان قد ضمن انتصاره، هذه هي المفارقة فكيف نفسرها؟ أنقول إننا هنا أمام سيناريوهات بريئة ومفترضة من قبل باحثين أمريكيين، ليس لهما خلفيات سياسية؟ لكن ثمة تأويلا آخر يبدو مقبولا. خاصة عندما نقبل بفكرة أن الإستراتيجية الأمريكية تقتضي باستمرار صنع عدو ما. إن إعلان الانتصار المبكر (نهاية التاريخ) ربما كان قناعا عن الرغبة في الإسراع بتصفية العدو الشيوعي. وبعد الانتصار

على هذا العدو، وخوفا من تراخي الساسة والمثقفين، أسرع هنتنغتون بإعطاء بعد جديد للصراع وخلقَ عدوا جديدا، ممثلا هذه المرة بالإسلام.10

هكذا فإن نظرية صدام الحضارات ما هي إلا تعبير عن السياسة الأمريكية التي لا تفهم خارج هذا التعريف: لا سياسة من غير تعيين عدو ما. وهذا المفهوم ينسجم مع الفلسفة البراجماتية التي تحكم السلوك الأمريكي بما في ذلك سلوك السياسي. إن السياسة لدى هذا الأخير تعني الميكيافيلية. لقد أكد هذه الحقيقة ميشال سارسو: بقوله: «لا يوجد في نظرية صدام الحضارات سوى خطاب الإستراتيجي، ليس هنالك سوى البراجماتية.»11 وثقافة العدو –فيما يرى م.سارسو- ضرورة لا غنى عنها، باعتبار أنها تحفظ وجود الولايات المتحدة ومن ورائها الغرب، وتزيح الفراغ أو الفوضى من العالم، نتيجة تصدع الاتحاد السوفيتي العدو القديم.

إن العدو أو الخصم يصلح كمرآة تتأمل فيها الولايات المتحدة قوتها وكفاءتها، وهو ضروري للانتقام منه، ولقد كان العدو المُزاح يعي ذلك، فقد صرح أحد الساسة السوفييت في أروقة هيئة الأمم المتحدة نهاية 1989، قاصدا الأمريكيين: «سنفعل لكم أسوأ الأشياء؛ سنحرمكم من العدو.» 12

لكن هل علينا أن نفهم سبب تخوف الولايات المتحدة ومن ورائها الغرب من هذا العدو الإسلامي- الكونفوشي الجديد؟ إن الإحصائيات المرجّحة تفوق عدد المسلمين في المستقبل كافية لإعطاء الجواب. ففي سنة 1980، فإن 31% من سكان العالم كانوا مسيحيين أي أنهم كانوا واحدا من كل ثلاثة. وفي سنة 1985 المسيحية احتفظت بنسبة 32% . الصين عرفت الثبات نفسه. أما الإسلام، رغم أن عدد معتنقيه ارتفع بـ 57 مليونا، فقد انخفض إلى 10.3%. وفجر عام 2000 تغيرت الحالة تماما؛ فقد تراجعت المسيحية بـ 2.4%.ومع تحتفظ بالمرتبة الأولى، والصين إلى 20.5% من سكان العالم، بينما ربح الإسلام ست نقاط، فهو يحتوي على 23.3% من سكان العالم. ما يعني مسلما

من كل أربعة. نحو عام 2020 سيحتل الإسلام المركز الأول بـ30.6% من سكان العالم دائما، فيما تأتي المسيحية في المرتبة الثانية بـ25.2%. وفي عام 2100 فإن نحو واحد من اثنين سيكون مسلما من سكان العالم، أي بنسبة 40%، والمسيحية ستحتفظ بالمرتبة الثانية، لكن بـ20.2% فقط. الصين بـ13%، أما فيما يخص الديانات والتيارات الروحية الأخرى، فستمثل 26.2% من سكان العالم13. هذا ما يخيف ربما هنتنغتون والغرب.

2-3 نموذج الصدام ونموذج الحوار بين الحضارات: أية أهداف؟

إن تحديد الأهداف لدى كل من هنتنغتون وجارودي من شأنه أن يكشف عن تهافت وتحيز الأول وبالتالي فشل نموذج الصدام بين الحضارات الذي سيبشر به، وفي المقابل مشروعية نموذج الحوار وموضوعيته وضرورته، الذي دعا إليه جارودي وغيره، نذكر منهم «أليكس جورافسكي» صاحب كتاب «الإسلام والمسيحية: من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم».

إن الأهداف التي يتوخاها هنتنغتون لا تحتاج إلى تأويل من مستوى أعلى، بل إنها معلنة بوضوح. إن التحدي الذي تواجهه الحضارة الغربية أو الغرب من قبل الإسلام خاصة، يتوجب اعتماد استراتيجيات تتشكل بطبيعة علاقاته مع الحضارات الأخرى. «فحتى يمكن تقليل خسائر الغرب عليه أن يحسن التصرف بمهارة فائقة في المصادر الاقتصادية واستخدام هذه المصادر الاقتصادية جزرة وعصا في التعامل مع المجتمعات الأخرى، وتدعيم وحدة الدول الغربية وتنسيق سياساتها حتى تكون هناك صعوبة للمجتمعات الأخرى لتوظيف دولة غربية ضد دولة غربية أخرى، وأيضا لتعزيز واستغلال الاختلافات ما بين الأمم غير الغربية.»14

كما إنه ينصح بدمج الدول الغربية في وسط أوروبا وبلدان جمهوريات البلطيق وسلوفينيا وكرواتيا في الإتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي. وتشجيع الغربنة في أمريكا اللاتينية، وإيجاد تحالف وثيق مع بلدانها. وكبح تطور القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية للبلدان الإسلامية والبلدان الصينية، وإبطاء ابتعاد اليابان بعيدا عن الغرب وإبطاء تأقلمها مع الصين. وقبول روسيا كدولة أساسية للأرثوذكسية وقوى إقليمية كبرى بمصالح شرعية لضمان حدودها الجنوبية [طبعا على حساب الجمهوريات الإسلامية]، والمحافظة على تفوق التكنولوجيا الغربية، والتفوق العسكري الغربي على الحضارات الأخرى.15

أمام هكذا أهداف صريحة معلنة يسهل علينا فهم السياسة الخارجية للولايات المتحدة اليوم، وكأنها تتصرف وفق الإستراتيجيات التي رسمها لها هنتنغتون. ولا غرابة في ذلك، فليس هو الأول ولن يكون الأخير في هذا المجال. لقد نشر بريتشارد نيكسون في سنة 1985 مقلا جاء فيه: «روسيا وأمريكا يجب أن تعقدا تعاونا حاسما لضرب صحوة الأصوليين المسلمين»16. وله كتاب آخر بعنوان «انتهزوا الفرصة»، يقرر فيه أن الإسلام قوة هائلة، يتحدى بتزايد عدد سكانه وقوته المالية، يقول: « ينبغي أن يستعد الغرب لمواجهة حاسمة مع الشرق الإسلامي فالعالم الإسلامي يشكل واحدا من أعظم التحديات السياسية الخارجية للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين»17.

وربما امتدت جذور نظرية الصدام بين الحضارات إلى ما قبل ذلك. فهي ليست فكرة جديدة من حيث المضمون، إذ هي تستعمل مقولة المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي التحدي والاستجابة لتنطلق من جديد بأسلوب أيديولوجي ينبع من وهم الانتصار في الحرب الباردة ونهاية التاريخ.

ويذهب وليد الخشاب إلى تحديد سلفين من الناحية الفكرية لهنتنغتون وهما « هـ موس « و» هنري شميتينز « الأول له كتاب في سنة 1937 تحت عنوان» **La naissance du**

moyen age »، وقد احتلت عبارة صدام الحضارات مكانا بارزا في فهرس هذا الكتاب. فهو يتحدث عن صدام الحضارات البربرية والحضارات الرومانية، الإمبراطوريات الشرقية والغربية. والثاني ظهرت له في سنة 1953 الترجمة الفرنسية في دار النشر نفسها لكتابه«les espaces vitaux et le conflit des civilisations» ، في هذا الكتاب اعتبر شميتينر الحضارة الروسية العدو رقم واحد للغرب. والصدام المستقبلي الذي تصوره يكون بين الغرب وبين منافسيه وهم الهند والشرق العالم العربي، والعالم الشيوعي. وهذا الصراع سيكون بين الحضارات على الأرض من أجل الحصول على مصادر الثروة18 . وقد تأثر هنتنغتون أيضا بأفكار المستشرق برنارلويس.

ولا شك أن تحديد أهداف هنتنغتون بالشكل الذي رأيناه يتوافق تماما مع النزعة البراجماتية للعقل الأمريكي. أولنقل البراجماتية الجديدة لما بعد الحداثة، فهو متأثر بفلاسفة هذه النزعة وعلى الخصوص ريشارد رورتي الذي يعد الأكثر تأثيرا في هذه البراجماتية الجديدة 19.

وبدلا من أهداف تصب في إطار تكريس هيمنة الغرب يرسمها خبير إستراتيجي، يطرح الفيلسوف أهدافا إنسانية تبتغي خير الجميع، الغرب واللاغرب معا. وأهداف كهذه أملاها قلقه مما يثيره النمو الوحشي بأخطاره على الإنسانية بوجه عام وعلى الغرب بوجه خاص. هذا القلق عبَّر عنه في أكثر من مناسبة، ففي كتابه « البديل » يعلن منذ البداية أن مجتمعنا في سبيله إلى الانحلال، فلا غنى عن تحويل جوهري. ومثل هذا التحويل لا يمكن أن يتم بالطرائق التقليدية. وأزمة بمثل هذه الضخامة تتطلب، كيما تحل، أكثر من ثورة. تتطلب تغيرا جذريا لا لنظام الملكيات وهياكل السلطة فحسب، بل أيضا لبنى الثقافة والمدرسة، الدين والإيمان، الحياة ومعناها20.

إن حوار الحضارات هدفه « الاستعاضة عن هيمنة الغرب الثقافية المفروضة خلال أربعة قرون من الاستعمار بتجربة سمفونية هي تجربة الثقافة العالمية الشاملة»،21 بعبارة أخرى « إيجاد التركيب الكبير الذي يستطيع وحده إيجاد نزعة إنسانية كلية». 22

إن حوار الحضارات هو من أجل قلب النظام السائد على الصعيد الثقافي القائم على الهيمنة الغربية وبناء « نظام عالمي جديد ».23 إن المشكلة الأساسية في الثقافة الحاضرة هي أن نقضي على التصور التسلطي في الثقافة الغربية وأن نستعيض عنه بتصور «سمفوني»، إذ نتطلع بأسئلتنا إلى حكمة العالم اللاغربي، وقد أصبحت المشكلات تطرح منذ الآن على المستوى العالمي. ولا يمكن أن تحل إلا على هذا المستوى العالمي، وذلك بالانخراط في حوار حضارات حقيقي مع الثقافات غير الغربية24.

وإذا أردنا الدقة فإننا نحصل على ثلاث نتائج من المفهوم السمفوني للثقافة.

أولا: إصباغ النسبية على المفهوم الغربي، وذلك بفتح المجال لإمكانيات أخرى، والعثور على توازن جديد مع الطبيعة، بدلا من الاتجاه الغربي السائد الذي كان قد حدده ديكارت من قبل: وهو ضرورة أن نكون « سادة الطبيعة ومالكيها ».

ثانيا: تحويل رؤيتنا للعالم عن تركيزها حول أنانا الصغيرة، وذلك أن الحضارات اللاغربية تعلمنا بادئ ذي بدء أن الفرد ليس مركز كل شيء، وأن فضلها الأعظم يرجع إلى أنها تجعلنا نكتشف الآخر وكل الآخرون فكرة مبيتة تضمر التنافس والسيطرة.25 يجب -فيما يؤكد جارودي – أن نتعلم المشاركة الحقيقية من الحضارات الأخرى.

ثالثا: تحديد غايات أعمالنا، وهذا بربط العلم بالغاية الإنسانية وبالإحساس الإنساني، فإلى جانب العلم هناك الجوانب الجمالية والروحية.

وهكذا فإن حوار الحضارات يهدف إلى إشراك الجميع في صنع مستقبل الجميع دون إقصاء أو استعلاء أو إنكار أو استلاب مهما كان شكله.

3-3 من الهيمنة الثقافية إلى سمفونية الثقافة

هل الثقافة والحضارة مفهومان مختلفان ؟ أم هما شيء واحد؟

كل من هنتنغتون وجارودي يطابق بين المفهومين، غير أن النتائج التي تترتب عن ذلك تختلف عند كل منهما.

بالنسبة لهنتنغتون إن الثقافة والحضارة يشيران إلى نمط الحياة العام للبشر، وما الحضارة إلى ثقافة كتبت بحروف كبيرة. إن الحضارة فضاء ومساحة ثقافية؛ إنها تأليف من خصائص وظواهر ثقافية. هكذا فإن التعريف بالحضارة يقوم على الثقافة.

لكن ما الذي يشكل جوهر الثقافة أو الحضارة؟ إنه الدين، فهو المقوم الرئيس والأكثر أهمية في تحديد الحضارة. والدليل على ذلك أن الحضارات الكبرى – فيما يرى هنتنغتون- كانت إلى حد كبير قد ارتبطت في تحديدها بالديانات العالمية العظيمة. والواقع يثبت أن الشعب الذي يشترك في العرق واللغة ولكن يختلف في الدين من الممكن أن يذبح بعضه بعضا.

وبما أن الحضارة – أي حضارة هي كيان ثقافي في أوسع معانيه، فإنها تمثل أوسع مستوى من الهوية الثقافية يكاد يكون شعب ما قد وصل إليها، والتي تميزبني البشر عن الأنواع الأخرى.26 وهكذا فالهوية في أضيق مستوى لها تتعلق بقرية لكنها حينما ترتبط بالحضارة التي يمثل الدين مركزها تأخذ أوسع مستوى لها.

وكون الحضارة كيانا ثقافيا معناه أنها ليست كيانا سياسيا؛ بمعنى إنه لا يوجد تطابق بين الحضارة والدولة أو الكيان السياسي. فقد توجد داخل الحضارة الواحدة دول أو وحدات سياسية. يقول هنتنغتون:» إن معظم الحضارات تتضمن أكثر من دولة أو كيان سياسي آخر في العالم المعاصر معظم الحضارات تحتوي على دولتين أو أكثر».27 طبعا هذا لا يمنع أن تشكل في الوقت ذاته بعض الحضارات دولة واحدة مثل الصين فهي حضارة ودولة، كذلك اليابان.

لكن ما الذي يترتب عن هذا المفهوم للهوية؟ إن ربط الهوية بالحضارة يقوم على فكرة أساسية ما فتئ يؤكد عليها هنتنغتون، وهي أن تمايز الأنا لا يتم إلا من خلال إدراك الآخر المختلف، وبالتالي فإن البرادجم الهوياتي الحضاراتي يقوم على انشغال أساسي، كنا قد ألمعنا إلى جذوره فيما يذهب «وليد الخشاب»، هو أن البشر يختلفون عن بعضهم البعض ليس من أجل الإشادة باحترام الاختلافات ولكن للتمييز بين الحداثيين وغير الحداثيين، بين الشعوب المتقدمة والشعوب المتأخرة، وبين المحتضرة والبربرية، بين السود والبيض... إلى غير ذلك من المسميات التي تظل مهما اختلفت قائمة على مبدأ عنصري إمبريالي هو بناء الآخر كموضوع، مختلف كليا عن الأنا ومتخلف عنه. هذا من أجل تبرير عملية الهيمنة على هذا الآخر28.

وبما أن الأديان هي أساس الحضارات، فهي سبب الخلاف والصدام بين الشعوب والجماعات من حضارات مختلفة، وهنا تكمن المغالطة الخطيرة في منطق هنتنغتون، خاصة إذا عرفنا أنه لا يضع جميع الأديان في سلة واحد، بل هو يوجه الاتهام تحديدا إلى الإسلام. إن الوقائع تثبت أن صدام الحضارات ليس صداما بين الأديان، فالأديان لا تتحرك وحدها بل لا بد من أن يحركها أحد، والدافع هو المصلحة أولا وأخيرا، وإنما يغطى عليها بالدين من أجل كسب المؤيدين وتجييشهم. إن الغرب يحاول في الحقيقة أن يحافظ على عدم المساواة في توزيع القوة والثورة والنفوذ في العالم التي هي في صالحه، وأي تغيير في هذه الوضعية يعتبره الغرب تهديدا لمصالحه. إن الغرب يساوي المصالح، هذا ما يثبته الواقع. وبالتالي فإن أي منافس لمصالح الغرب يعتبره عدوا حقيقيا يجب مواجهته.

ولقد بين محمد أمين العالم أن الصراعات التي تتفجر بين الهويات الوطنية أو الدينية تأخذ الوجه الوطني أو الديني، ولكنها في حقيقة الأمر صراعات من أجل المصالح، إنها كفاح البلدان السائرة في طريق النمو من أجل الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والوطنية.

إن هذه الصراعات، التي تبدو أحيانا هوياتية أو عرقية، أو ثقافية أو دينية، ليست صراعات بين الحضارات29.

وإذا كان هنتنغتون يؤكد أن المواجهة هي بين الغرب المسيحي والإسلام، فإنه يجب أن نتساءل: هل توجد مسيحية حتى تدخل في مواجهة مع الإسلام؟ لقد تنبه المرحوم مالك بن نبي بنفاذ بصيرته إلى الخطر التي يتهدد المسلمين في الثلث الأخير من القرن العشرين وقدم وصية للمسلمين جاء فيها أن الصراع سيكون بين ثلاثة عناصر: الإسلام والشيوعية والصهيونية التي تتقنع بقناع الديمقراطية والإنسانية والعدالة، وفي المستقبل – يقول مالك بن نبي- سوف تتدخل بقناع المسيحية.30 لأن المسيحية في الواقع لم يبق منها إلا الهيكل الإداري «الفاتيكان» أما القاعدة الجماهيرية فقد انتهت. وبما أن الشيوعية قد سقطت فلم يبق إذن إلا الإسلام (الذي سيتحالف مع الكونفوشيوسية فيما يعتقد هنتنغتون) والصهيونية بقناع المسيحية.

وفي معرض الانتقادات الكثيرة التي قدمت لخطاب صدام الحضارات، أعاب عجمي أستاذ الدراسات الجامعية في جامعة جونزهوبنكر الأمريكية، على هنتنغتون تجاهله للدور الذي تقوم به الدول في الصراعات، وسياسات المصلحة والمكر التي تتبعها لتأكيد نفوذها وسيطرتها. فالدول هي التي تتحكم بالعلاقات والروابط الحضارية وليس العكس، أي أنها تؤكد على هذه الروابط فقط إذا رأت أنها تخدم مصالحها السياسية والعسكرية.

وأما الارتباط الذي يتوقعه هنتنغتون بين الحضارتين الكونفوشية والإسلامية وتحالفهما ضد الغرب، فإن عجمي يؤكد على الجانب الاقتصادي الذي يتحكم في دول شرق آسيا وليس السياسي، حيث يصفها بأنها ورشات صناعية وينبغي وجود أي صيغة كونفوشية تسير هذه المجتمعات. وبذلك فهو يرفض وصف العلاقات الاقتصادية بين الصين وبعض الدول الإسلامية بأنه حلف كونفوشي إسلامي، حيث يرى أن المصلحة الاقتصادية هي الأساس في هذه العلاقات.31

ومن جهة أخرى يذهب الكثير من منتقدي هنتنغتون إلى نفي أن تكون الحضارة ولا الثقافة هي المصدر الأساسي للصراع في العالم الجديد بل إن الصراع أيديولوجي.

ومما يلفت الانتباه ويثير الدهشة في تصنيف وتحليل هنتنغتون للحضارات هو سكوته عن الديانة اليهودية بالرغم من تأكيده على الدين كعنصر أساسي للتمييز بين الحضارات. ولم يشر إلى الصراع المحتمل بين الإسلام واليهودية – اللهم إلا تلك الإشارة الخاطفة التي وردت في سيناريو الحرب الحضاراتية المتخيلة، حيث يتنبأ باستيلاء الحركات الأصولية على الحكم في البلدان العربية بعد إطاحتها بالأنظمة القائمة فيها، وتشن الحرب بعد ذلك على إسرائيل لكن دون تفاصيل أخرى- من جهة ومن جهة أخرى بين اليهودية والمسيحية. والأسوأ من هذا فإنه لم يستخدم الدين كمعيار للتصنيف إلا عندما جاء على ذكر الحضارة الإسلامية فالحضارة الغربية نسبة إلى الغرب وهو مجال جغرافي، والكونفوشية نسبة إلى فيلسوف الصين كونفوشيوس، واليابانية نسبة إلى بلاد اليابان، والهندية إلى بلاد الهند، والسلافية الأرثوذكسية نسبة إلى عرق ودين، والحضارة الإفريقية نسبة إلى القارة الإفريقية، وحضارة أمريكا اللاتينية نسبة إلى قارة أمريكا اللاتينية.

وعدم التقيد بمعيار واحد للتصنيف يعتبر إخلالا بالمنهجية العلمية التي يجب أن تتبع في مثل هذه الموضوعات. لقد كان عليه أن يلتزم بمعيار الدين الذي حدده في تصنيفه لجميع الحضارات. وفيما لو استخدمنا الدين كمعيار للتصنيف بين الحضارات سيكون عندنا الحضارات التالية: الحضارة المسيحية، والحضارة الإسلامية، والحضارة البوذية والحضارة اليهودية.

ولو عدنا إلى الديانة الإسلامية ذاتها، فإننا لا نجد إسلاما واحدا بل أشكالا من الإسلام تعبر عنها المذاهب المتعددة التي يصل الاختلاف فيما بينها إلى حد تفجر الصراعات بين المسلمين، ولا أدل على ذلك مما يجري في العراق، حيث يمكن القول أن هناك شبه حرب طائفية بين السنة والشيعة.

وفي الوقت الذي يجعل هنتنغتون الحضارة التي أساسها الدين، تتحكم في كل شيء بما في ذلك السياسة والاقتصاد، يؤكد جارودي هو أيضا على دور الدين في الحضارة أو الثقافة، باعتباره عنصرا روحيا، فالدين يؤثر في الفن، هكذا فإن الفن الإسلامي له دلالة دينية، وهذا ما يعبر عنه القول: كل الفنون تؤدي إلى المسجد والمسجد إلى الصلاة. 32

وبدلا من أن تكون الأديان سببا للصراع أو الخلاف، يرى جارودي أن لها وظيفة في مشروع المستقبل – حوار الحضارات، «إن التساؤل- فيما يقول- عن الغايات وعن قيمة ومعنى حياتنا ومجتمعاتنا على نحو يتيح إحداث تغيير في الناس وفي البنيات- ذاكم ما يمثل بصورة تقليدية الدور والوظيفة المناطين للأديان»33.

ولذلك فهو ينتقد المسيحية بشدة ويبين ارتباطها بالفكر الإغريقي القائم على التمييز بين العالم الحسي والعالم فوق الحسي، وهذه عدوى أولى، والثانية تنظيم الكنيسة تبعا لبنيات تسلطية وتسلسلية مثل بنيات الإمبراطورية الرومانية، وإصابتها بعدوى ثالثة هي عدوى الفردية الذائعة في عصر النهضة الغربي، الأمر الذي أدى إلى اعتبار الإيمان المسيحي حافزا روحيا لاتساع الرأسمالية.

وعلى المسيحية إذا هي أرادت القيام بالدور والوظيفة المناطين بها فعلى الكنائس المسيحية أن تتجدد، وتقوم بمزيد من الانفتاح على العالم.

وفي الأخير إن روح حوار الحضارات الحقيقي هو الذي يعزز انتماء الشعوب إلى أديانها بدلا من محاولة إخراجها منها، في إشارة إلى رفض التبشير أو الدعوة إلى الإسلام أو إلى أي دين آخر، فعلى كل إنسان أن يطلب الاهتداء العميق داخل ثقافته الخاصة، أو ديانته الخاصة إذا شئنا الدقة. لكننا نتساءل هنا عن معنى عالمية الإسلام وضرورة دعوة الناس إليه؟

3-4 الغرب معجزة أم عرَض طارئ؟

الغرب مفهوم مركزي في خطاب صدام الحضارات كما هو في خطاب الحوار بينها، لكن هل المقصود به واحد في كلا الخطابين؟ الجواب هو بالنفي، وفي هذا مفارقة، إذ كيف يختلف مفهوم الغرب لدى هنتنغتون عنه لدى جارودي وهما معا غربيان ؟ إن تفسير ذلك سهل لسبب بسيط وهو أن جارودي لا يتعالى على الواقع والتاريخ، ومن ثم فهو يحدد الغرب تحديدا موضوعيا في الوقت الذي يظل مفهوم الغرب لدى هنتنغون منسجما مع منطق الإستراتيجي، أو الإيديولوجي، فهنتنغتون لم يتخلص من الثنائية القطبية التي قال بزوالها مواطنه فوكوياما. وهكذا فإن الغرب إبان الحرب الباردة هو نفسه الغرب في عالم ما بعد هذه الحرب، يتحدد عند هنتنغتون بالمسيحية الغربية، ومعنى هذا أن المسيحية الأرثوذكسية لا تدخل في نطاق المسيحية. إن أوروبا تنتهي عند النقطة التي تنتهي فيها المسيحية الغربية ويبدأ فيها الإسلام والأرثوذكسية.

والغرب يتميز عن الحضارات الأخرى بمجموعة من السمات وهي الميراث الكلاسيكي (المتمثل في الفلسفة اليونانية) والعقلانية والقانون الروماني، اللاتينية والمسيحية، الكاثوليكية والبروتستانتية، اللغات الأوروبية، فصل السلطة الدينية والدنيوية، سيادة القانون، والفردية.

وهكذا فإن التفوق الغربي مرده إلى ثقافته، وبداية هذا التفوق أو النهوض كقوة تعود إلى أربعمائة سنة خلت. فالغرب صعد كقوة مع بداية عصر النهضة.

وفي علاقته بالحضارات الأخرى، يحدد هنتنغتون صورتين عن الغرب. الأولى هي الهيمنة المتفوقة والمنتصرة والشاملة للغرب. هذه الهيمنة تأكدت بعد إزاحة الإتحاد السوفيتي المتحدي الخطير الوحيد للغرب. وسيطرة الغرب تتم ماليا وصناعيا وعسكريا وتقنيا وعلميا وإعلاميا.

والصورة الثانية هي حالة الغرب في حالة اضمحلال، بمعنى أن نصيبه من القوة العالمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية آخذ في الهبوط بالقياس إلى قوة الحضارات

الأخرى، ومؤشرات هذا الهبوط تتمثل في النمو الاقتصادي البطيء، والركود في عدد سكانه، والبطالة، والتفكك الاجتماعي، والمخدرات والجريمة. وهبوط الغرب هذا يقابله صعود الحضارات الآسيوية ببزوغ الصين كقوة اقتصادية، والحضارة الإسلامية بنموها السكاني، وهذا ما يدفعها إلى رفض الحضارة الغربية وتحديها.

لكن الهبوط النسبي للغرب لا يعني أنه سيفقد تفوقه، والتحديات التي يواجهها لها حدودها وستشهد تغييرا؛ ذلك أنه لا يمكن المحافظة على معدل نمو اقتصادي عال إلى ما لا نهاية. إن الازدهار الآسيوي سيشهد هبوطا في أوائل القرن الحادي والعشرين، ودول المعجزة الاقتصادية الآسيوية سترى معدلات نمو قريبة من المستوى العادي. والانبعاث الديني أو الحركة الثقافية لا يمكن أن يدوما إلى الأبد، فعند نقطة ما فالانبعاث الإسلامي يهدأ ثم يتلاشى نحو التاريخ34. وهذا بسبب ضعف القوة الديمغرافية التي تغذيه في العقدين الثاني والثالث من القرن الحادي والعشرين.

لكن نظرة كهذه إلى الغرب تنم عن نزعة المركزية الأوربية التي يسهل على القارئ ملاحظتها في تحليلات هنتنغتون. وهذه النزعة تنفي أي مساهمة للحضارات الأخرى في صنع الحضارة الغربية التي هي اليوم بمنجزاتها العلمية والتقنية حضارة الإنسانية جمعاء.

وقبل أن نقدم وجهة نظر جارودي الموضوعية عن الغرب، يمكن الإشارة إلى تناقض أساسي في خطاب صدام الحضارات. فهذا الخطاب يرجع بالحضارة الغربية إلى أصول إغريقية وفي الوقت نفسه يستبعد أصحاب هذا التراث من هذه الحضارة ونقصد اليونان الأرثوذكسية. ثم إنه يقيم تمييزا بين الأرثوذكسية والغرب دون مبرر مقبول؛ ذلك أن الأرثوذكسيين مسيحيون أيضا والاختلاف الموجود بين المسيحية الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية والمسيحية الغربية أو الفاتيكان، ليس إلا كالاختلاف بين السنة والشيعة حول أمور تتعلق بالعقيدة وبعض المفاهيم المرتبطة بها. فلماذا إذن يعزل الأرثوذكسية عن الحضارة الغربية، ولا يفعل هذا مع الشيعة والسنة بالنسبة للإسلام؟

وما يقال عن روسيا يقال عن أمريكا اللاتينية. لقد استهجنت جين كيرياتريك (أستاذة في علوم الدولة في جامعة جورجتاون) تصنيف هنتنغتون أمريكا اللاتينية كحضارة مختلفة عن الحضارة الغربية، حيث إنها لا تختلف في عناصرها الرئيسة، أي إن كلتيهما حضارات أوروبية امتزجت بعناصر أخرى. وبالمثل فهي تتساءل ما هي روسيا، إن لم تكن حضارة غربية، إن الشعوب السلافية والأرثوذكسية في روسيا هم أوروبيون وينتمون لحضارة أوروبية.35

ويتساءل إنمار كارلسون (الموظف السامي بوزارة الشؤون الخارجية السويدية) بدوره عن الشيء الذي يميز ثقافة أمريكا اللاتينية عن الثقافة الغربية. فجنوب وشمال أمريكا قطنهما مهاجرون أوروبيون، لهم القيم نفسها. وإذا كان العامل الهندي مهما في بلدان مثل المكسيك والبيرو وغواتيمالا، وإذا كان هذا العامل مهما فيهما أكثر من الولايات المتحدة، فإن بلدانا أخرى مثل الشيلي والأرجونتين هي أكثر أوروبية من الولايات المتحدة. وبالنسبة للحضارة السلافية الأرثوذكسية كما يزعم هنتنغتون، فإنها في رأي كارلسون لا تشكل كتلة واحدة، إن السلافيين الغربيين غير الأرثوذكس، كالبولونيين والسلوفاكيين لم يكن لهم أبدا أية قرابة مع موسكو. وبالمثل ليس هناك حضارة كونفوشية موحدة، في إشارة منه إلى العداء التقليدي بين فيتنام والصين. كما عاب كارلسون على هنتنغتون تجاهله للحضور القوي للإسلام في إفريقيا36.

بعد هذه الانتقادات لهنتنغتون نتساءل الآن عن مفهوم الغرب وحقيقة الحضارة الغربية عند جارودي.

بداءة لا يميز جارودي في الغرب بين المسيحية الغربية والأرثوذكسية، فكلتاهما تندرجان ضمن مفهوم الغرب، وبتعبير أدق إن الغرب هو البلدان الرأسمالية والاشتراكية وبذلك فهو حينما ينتقد الليبرالية ينتقد الاشتراكية أيضا وبالشدة نفسها، ويؤكد صدورهما عن منبع واحد، بل إنهما تصلان إلى النتائج ذاتها، فلقد «غدا الإله في الرأسمالية

والمال، العجل الذهبي، وغدت المادية الجدية الاشتراكية نوعا من لاهوت علماني، وهو أسوأ أنواع اللاهوت.»37

وهذا النقد للرأسمالية والاشتراكية ميثوث في مؤلفات أخرى. ففي كتاب آخر له، يؤكد جارودي أن مصيبة الغرب اليوم سواء في البلاد الرأسمالية أو الاشتراكية هو اعتماده على النمو المتواصل بدون هدف إنساني أو أخلاقي. هذا الواقع قد أدى إلى مشاكل كثيرة ويؤدي بالتالي إلى استبعاد الآخرين والسعي وراء الهيمنة واستغلال العالم الثالث.38

إن الرأسمالية أوصلت الغرب والإنسانية إلى طريق مسدود وجاءت الماركسية لترتكب الخطأ نفسه بأسلوب آخر. فقد اعتمدت هي أيضا نظرية النمو المادي الرأسمالية ذاتها مقياسا للتقدم، ومعيارا للسعادة الإنسانية، بل واتخذت وصف النمو الرأسمالي قانونا دائما بالنسبة لنمو الاشتراكية ذاتها، فوقع النظامان في سياق واحد، سياق الإنتاج المادي المتزايد إلى ما لا نهاية وإلى ما لا غاية، والفارق فقط في الأسلوب بين نظام يعتمد المبادرة الفردية ونظام آخر يعتمد الدكتاتورية الجماعية.39

ونقده للحضارة الغربية يعبر عن رفضه حتى لكلمة «غرب»، إنني- يقول جارودي- لا أحب لفظة الغرب، وقد حمّلوها عددا كبيرا من التعريفات التي خدمت قضايا مشبوهة في تقسيم العالم.40

ويفنّد جارودي مزاعم أولئك الذين يردون حضارة الغرب إلى التقاليد الثلاثة: المسيحية، وبوجه أدق الكاثوليكية، في مجال الأخلاق. وفي مضمار الحقوق والسياسة والدولة: تأثير موصول للقانون الروماني، والتقليد الإغريقي في حقل الفكر والفنون.

لكن جارودي يتساءل لماذا تقصم هذه «التيارات» الثلاثة عن متابعتها؟ إن الغربيين يخلقون على هذا المنوال وهما أن الغرب هو بدء مطلق، وأنه انبجس، مثلما يظهر نبات تمتنع عن تتبع جذوره، انبجاس كائن فريد وحيد، بنوع من معجزة تاريخية. إن هذا يخفي

الجوهر الأساسي: إن ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم (الغرب) إنما ولد في (ما بين النهرين) وفي (مصر)، أي في آسيا وإفريقيا.41

إن النظرة إلى العالم القائمة على السيطرة على الطبيعة والناس لدى الغرب تجد أساسها في ملحمة جلجامش التي سبقت الإلياذة بألف وخمسمائة عام. والفلسفة اليونانية تدين بالشيء الكثير إلى الفكر الشرقي، وأبرز مثال على ذلك أفلاطون الذي ثبتت زيارته إلى مصر، وفكره السياسي مستوحى من نظام الطبقات الذي كان سائدا فيها في ظل الحكم الفرعوني. والفن اليوناني تأثر بدوره بالفن المصري. هذا إلى جانب تأثيرات أخرى في ميدان العلوم كالرياضيات.

وأما تأثير الرومان فيبطل جارودي مزاعم الغرب بشأنه، لأن «الرومان هم الشعب الوحيد من شعوب العالم القديم الذي لم يقدم لنا شيئا في المجال الثقافي.»42 أكثر من ذلك «إن الرومان لم يتحلوا إلا بخصلتين: القوة العسكرية التي أتاحت لهم نهب العالم، وتنظيمهم البيروقراطي. فلم نتحدث عن تفوق حضاري؟»43

أما المسيحية فقد شُوه الجانب الشرقي فيها وهو الجانب الأصيل فيها. لقد أفسدها الفكر الإغريقي والتنظيم الروماني، أفسدها الغرب.

والتأكيد على بطلان فكرة «المعجزة اليونانية» بالإشارة إلى المنابع الشرقية والإفريقية للثقافة اليونانية، لا ينقص من أهميتها شيئا، لا بل إن الاعتراف بهذه الحقيقة هو من شروط الحوار المأمول.

وثمة فكرة أخرى أو زعم آخر يبطله جارودي هو ما اصطلح عليه أيضا «معجزة عصر النهضة»؛ ذلك أن نهضة الغرب لم تنشأ من فراغ، فلقد استفادت من إبداعات الحضارات الأخرى خاصة الحضارة الإسلامية. فالعرب لم يقتصروا على إحياء الثقافة القديمة (اليونانية) وإنما أسهموا إسهام إبداع ضخم في الثقافة العالمية، وقد شملت إسهاماتهم الفلك، والجغرافيا، والملاحة، والرياضيات، والكيمياء، وصناعة الورق، والطب،

والصيدلة، والعلوم الإنسانية ممثلة بابن خلدون الذي «يبقى شخصية عالمية في مجال العلوم الإنسانية إلى جانب اتصافه بأنه دبلوماسي ومحارب ومؤرخ وعالم اجتماعي وفيلسوف وفنان.»44

والحقيقة المرة التي لا يعترف بها الكثير من الغربيين ويشدد عليها جارودي في حوار الحضارات، هي أن نمو الغرب كان ولا يزال على حساب إنكار وهدم الثقافات اللاغربية. وكذا نهب ثرواته. ونحن نلفي هنتنغتون يشير إلى أن الغرب تغلب على العالم «ليس من خلال تفوقه في الأفكار أو القيم أو الديانة المسيحية (التي تحولت إليها أعداد قليلة من حضارات أخرى) ولكن بسبب تفوقه في تطبيق العنف المنظم». ولكن «اعترافا» كهذا هو من أجل تنبيه الغربيين فقط، فهو يواصل قائلا «الغربيون غالبا ما ينسون هذه الحقيقة؛ أما غير الغربيين فلا». إن على الغربيين أن يقلعوا عن وهمهم الضيق بأن الحضارة الأوروبية للغرب هي الآن الحضارة العالمية للعالم. إن عليهم أن يواجهوا تحدي حضارات أخرى (الكونفوشية والإسلامية) هذا هو في الحقيقة ما يود أن يقوله هنتنغتون.

أما جارودي فهو يعتبر أن إقامة حوار حقيقي بين الحضارات من شأنه إن ينتج إخصابا متبادلا بين الثقافات، هذا الحوار لا يكون ممكنا إذا لم نبدأ بتحليل الآليات التاريخية التي منعت أوزيفت هذا الحوار إلى اليوم، وأفقرت معايير المقارنة، ولا سيما شروط عدم التوازن الاقتصادي المطرد بين الغرب والعالم الثالث.

إن الحقيقة التاريخية هي أن نمو الغرب كان نتيجة نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوروبا وإلى أمريكا الشمالية، وبالمقابل فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفا. وهكذا فإن نمو الغرب يعني تخلف اللاغرب (العالم الثالث). «إن النمو والتخلف عنصرا منظومة واحدة، هي المنظومة الرأسمالية.»45

ونمو الغرب جاء نتيجة مراحل: أولها كانت إبادة السكان الأصليين كالهنود الحمر بأمريكا، ثم مرحلة الاسترقاق عن طريق تجارة العبيد في إفريقيا، وتلتها مرحلة الاستعمار

وما ارتبط به من قتل وإبادة ونهب وإفقار، ولا أدل على ذلك من الاستعمار الفرنسي بالجزائر الذي ارتكب فضائح، يؤكد جارودي على ضرورة كشفها. غير أنّ الإستعمار لم ينته، بل لقد أخذ شكلا آخر هو الاستغلال الاقتصادي عن طريق الشركات المتعددة الجنسيات، والتي تستخدم لمصلحتها المؤسسات الدولية الكبرى مثل البنك الدولي للإنشاء والتعمير، وصندوق النقد الدولي... وعلى هذا المنوال نجد سيطرة الرأسمالية العالمية على العالم لا زالت مستمرة وعلى السلم الكوني أو العالمي هذه المرة. وبالتالي فإن الفصل الأخير من تاريخ الهيمنة الغربية وتخلف العالم الثالث نتيجة ذلك لم ينته بعد.

والنتيجة التي نصل إليها من خلال تحليلات جارودي لمقولة الغرب وحضارته وكشفه آليات نموه، هي أن «الغرب حادث عارض. إنه أخطر عارض طرأ في تاريخ الكرة الأرضية والذي قد يقود اليوم إلى فنائها.»46 وحوار الحضارات الكفيل بإعادة تشكيل نظام عالمي جديد، قائم على توازن جديد بعيداً عن أيّ تمركز، هذا الحوار يجب أن ينطلق من هذه المسلمة: إن الغرب عرض طارئ.

3-5- الإسلام دين التسامح لا العنف

إن أهم طرف من بين جميع أطراف حوار الحضارات هو الإسلام من دون شك، ذلك أنه الدين الوحيد الذي تلصق به الشبهات ويتهم بالعنف والإرهاب، وحسب هنتنغون هو العدو الأول والأخطر الذي يهدد الغرب. وهذا أخطر ما في نظرية الصدام؛ ذلك أن صاحبها لا يتحدث عن الجماعات الإسلامية التي تخوض الصراع ضد الغرب وضد بلدانها، بل يتحدث عن الإسلام والمسلمين ككل – وربما كانت هذه نظرة الغرب بشكل عام – فهو يحدد موقفه بصراحة تامة عندما يرفض النظرة الجزئية التي تقول إن الغرب ليس لديه مشاكل مع الإسلام ولكن مع المتشددين الإسلاميين الذين يدعون للعنف، ويرد قائلا: «أربعة عشر قرنا أثبتت عكس ذلك. العلاقات بين الإسلام والمسيحية كانت غالبا عاصفة. كل واحد كان آخر للآخر.»47 ويقول أيضا: » القيادات الأمريكية

تدعي بأنّ المسلمين في شبه الحرب [بين الإسلام والغرب] هذه هم جماعات صغيرة وأن استخدام هذه الجماعات للعنف قد رفض من الأغلبية العظمى من المسلمين المعتدلين. ربما هذا صحيح، ولكن لا توجد دلائل تؤيده.» 48 « المشكلة في الغرب ليست الأصولية الإسلامية. المشكلة الإسلام.»49

إن الإسلام يهدد الغرب كل الغرب، ذلك أن المشكلة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات الأمريكية أووزارة الدفاع، المشكلة الغرب، حضارة مختلفة شعوبها مقتنعة بعالمية ثقافتها واعتقاد هذه الشعوب بتفوقها. إن صورة الغرب كمتكبروتعسفي وحشي لا يتمسك بها الأئمة الأصوليون فقط بل يحملها أولئك الذين يعتبرون حلفاء للغرب أيضا.

والأسباب التي تخلق الصراع بين الإسلام والمسيحية تنبع من طبيعة الدينين والحضارات المؤسسة على مبادئها. فالصراع كان من جهة، نتاج خلافات وخاصة مفهوم المسلم بأن الإسلام منهج حياة يوحد الدين والسياسة بينما المفهوم الغربي المسيحي يفصل الدين عن السياسة. ولكن الصراع أيضا ينشأ من التشابه بينهما، فكل منهما يؤمن بالله الواحد وفي ذلك يختلفان عن الأديان الأخرى التي تشرك بالله، وكل منهما يرى العالم بطريقة مزدوجة نحن وهم، وكل منهما عالمي يدّعي بأنه الإيمان الحقيقي والذي يجب أن تعتنقه الإنسانية، وكل منهما صاحب رسالة دينية يعتقد بأن معتقديه ملزمون بتحويل غير المؤمنين إلى ذلك الإيمان الحقيقي الواحد. والإسلام من بدايته انتشربحد السيف وعندما سنحت الفرصة للمسيحية فعلت ذلك.

إن أخطر ما في أطروحة هنتنغتون هذا الحكم الأخير القاسي على الإسلام. أما المسيحية فالعنف فيها طارئ (عندما سنحت الفرصة فقط). إن الإسلام على عكسها تماما هو «منذ البداية كان دين سيف، والإسلام انتشر بالسيف ويثمن ويعظم القيم والفضائل العسكرية. الإسلام نشأ وظهر بين قبائل البدو الرحل المقاتلين. وهذا الأصل العنيف طبع

في تأسيس الإسلام، محمد رسول الله نفسه يذكر ويشارك له كمقاتل صعب وقائد عسكري ماهر (لا أحد يقول هذا عن المسيح أو بوذا» 50.

إن المسلمين يمارسون العنف بدافع من عقيدتهم، هذه العقيدة «تطرح الحرب ضد غير المعتقدين، وعندما يتوقف التوسع الإسلامي الجماعيات الإسلامية مخالفة للعقيدة يتقاتلون فيما بينهم...القرآن والأحاديث لا يحتويان إلا على القليل من الحظر على العنف ومفهوم اللاعنف غائب من العقيدة والممارسة عند المسلمين»51.

ولما كان الصراع بين الإسلام والمسيحية موجودا دائما، فإن مستواه العنيف على مر التاريخ تأثر بالنمو السكاني وانخفاضه، والتطورات الاقتصادية والتغير التكنولوجي، ومدى شدة الوعود الإسلامية، لكن هناك عوامل مختلطة متشابهة زادت من هذا الصراع في القرن العشرين وتتمثل في:

أولا: النمو السكاني للمسلمين خلق بطالة لعدد كبير، وهؤلاء الساخطون من الشبان الذين جندوا للأهداف الإسلامية أو مارسوا ضغوطا على المجتمعات المجاورة وهاجروا إلى الغرب.

ثانيا: الإحياء الإسلامي أعطى للمسلمين إعادة الثقة في أهمية حضارتهم وقيمهم مقارنة بتلك التي في الغرب.

ثالثا:جهود الغرب في جعل قيمهم ومؤسساتهم عالمية والمحافظة على تفوقهم العسكري والتدخل في صراعات العالم الإسلامي خلقت إزدراء شديدا بين المسلمين.

رابعا: إنهيار الشيوعية حولت العدو المشترك للغرب وللإسلام وترك كل واحد يرى الآخر مصدر تهديد له.

خامسا: الاتصال المتزايد بين المسلمين والغربيين ولّد في كل واحد منهم شعورا جديدا بهويتهم وكيف أن هذه الهوية مختلفة عن الآخر، التفاعل والتمازج فاقما

الاخفاقات حول حقوق أعضاء الحضارة الواحدة في بلاد يسيطر عليها أعضاء من حضارة أخرى.

وللبرهنة على نزعة العنف لدى المسلمين، يقدم هنتغتون حجة صراعات خطوط الصدع والتي تأخذ شكلها الأعنف والأكثر انتشارا بين المسلمين وغير المسلمين من كاثوليك، وهندوس، وصينين، وبوذيين، ويهود، وهو ما يجعل حدود الإسلام دامية في نظره؛ إن « على طول محيط الإسلام، المسلمون لديهم مشاكل للعيش بسلام مع جيرانهم»52 . الصينيون مثلا لم يجدوا شغبا وعنفا ضدهم ذي أهمية إلا في بلاد المسلمين كأندونيسيا وماليزيا.

ولكن ماذا لو كان المسلمون هم الضحية، ضحية الإمبريالية الغربية وإخضاع المجتمعات الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين؟ إن هذه أطروحة المسلمين- يقول هنتنغتون- ولا تفسر الصراعات بين الأغلبية المسلمة والأقليات غير المسلمة في بلاد مثل السودان، ومصر، وإيران، وأندونيسيا.

وينتهي هنتنغتون بعدما يقدم أسباب العنف الإسلامي قديما وحديثا إلى التأكيد على أن أكثر عامل مقنع يمكن أن يفسر كلا من الصراع الداخلي والخاجي في القرن العشرين هو غياب وجود دولة أساسية أو قائدة أو أكثر من دولة أساسية في الإسلام. بعبارة أوضح إن الإسلام يقوم على مفهوم الأمة الذي يتعارض مع الدولة القومية. لكن المسلمين يفتقرون إلى الدولة التي تتصرف سلطويا نيابة عن الإسلام في التعامل مع الصراعات بين جماعات المسلمين وغير المسلمين. والعامل الأكثر أهمية من السابق هو الانفجار الديمغرافي في المجتمعات الإسلامية وتوفير الأعداد الهائلة من الشبان العاطلين.

وإزاء أحكام كهذه ماذا علينا أن نقول؟ إن هنتنغتون مصيب ومخطىء في آن واد. مصيب لأن المسلمين فعلا لهم مشاكل في كثير من البلدان، وأن أغلب الصراعات اليوم

هي بين المسلمين وغيرهم، ولكنه مخطئ في تحديد أسباب تلك الصراعات، وهذا ما علينا إثباته. ولنبدأ بالعاملين المهمين الأخيرين: الانفجار الديمغرافي، وغياب الدولة الأساسية.

لقد سبق أن بينا مع جارودي أن تخلف العالم الثالث هو نتيجة للرأسمالية الجشعة ومؤسساتها الدولية، ولذلك إذا بحثنا عن أسباب البطالة والهجرة والتوترات التي تبرز هنا وهناك سواء في البلدان الإسلامية أو الغربية، نجدها في عدم التوازن في توزيع الثروة داخل البدان الإسلامية، وفي هضم حقوق المسلمين أغلبية كانوا أو أقلية. إن الظلم والتمييز العنصري والرفض الذي يعانيه المسلمون كأقليات (في تايلاند مثلا)، أو كجاليات (فرنسا) والهيمنة الاقتصادية مثلما يحدث في أندونيسيا وماليزيا رغم أن المسلمين يمثلون الأغلبية. ففي هذين البلدين، واعتمادا على إحصائيات يوردها هنتنغتون نفسه- في معرض تبيانه للنفوذ الصيني في جنوب شرق آسيا-حسب هذه الإحصائيات نجد أن في أندونيسيا في منتصف الثمانينيات كان الصينيون يشكلون من 2 إلى 3 في المائة من السكان، لكنهم يمتلكون ما يقارب 70% من رأس المال الخاص المحلي و17 من 21 من المشروعات الكبرى يسيطر عليها الصينيون. وفي ماليزيا يمثل الصنيون تقريبا ثلث السكان ولكنهم يسيطرون تقريبا كليا على الاقتصاد.

أمام هذه الأوضاع المجحفة والسيطرة الاقتصادية لأقلية على الأغلبية، وما يترتب عنها، من الطبيعي أن تتوتر العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، ولا دخل للدين في هذا أصلا. ومن الطبيعي أن يدافع المسلمون عن أنفسهم إذا تجاوز الأمر السيطرة الاقتصادية إلى الاضطهاد والقمع كما يحدث في بورما وكشمير وفلسطين والبوسنة وفي أماكن أخرى كثيرة. إنه « عندما يقف المسلمون- فيما يقول أحمد شلبي- في معسكر مضاد للغرب فذلك نتيجة سياسة الغرب في البلاد الإسلامية خلال الحروب الصليبية، أو عهد الاستعمار، وللتأكيد المتصل لإسرائيل على حساب العرب والمسلمين وحساب الحق والعدل»53.

لكن هذا ما لا يعترف به الغرب وعلى لسان هنتنغتون، فهو يرجع أشكال الهيمنة وازدواج المعايير الغربية إلى ما يراه غير الغربيين أو المسلمون فقط، فمن جملة الأسباب المعتبرة لنزعة المسلمين للصراع في القرن العشرين، يقول: «تفسير قدمه المسلمون» ويذكر الإمبريالية الغربية، و» غير الغربيين يشيرون إلى التناقض بين المبادئ والممارسات الغربية، النفاق والرياء والمعايير المزدوجة. الديمقراطية تعزز لكن إذا جاءت بالسلطة الأصولية الإسلامية، فهي لا تعزز ولا تدعم، عدم انتشار الأسلحة النووية بالنسبة لإيران والعراق، ولكن ليس المقصود بذلك إسرائيل54».

إذن الأمر لا يتعلق بالواقع بل بنظرة المسلمين وغير الغربيين فقط، نظرة لا بد أن تكون غير صحيحة وغير واقعية في زعم هنتنغتون.

بعد هذا نأتي إلى دحض إتهامه للإسلام والمسلمين بالعنف، إن ربط العنف والإرهاب بالإسلام كذبة كبرى واتهام ظالم للإسلام، فالإسلام دين الأمن والسلام، أما الإرهاب فهو رد فعل لتعسف الغرب أو الانهيار الاقتصادي في الشرق الإسلامي، فالجوع وبخاصة جوع المثقفين يخلق التمرد في كل زمان ومكان، وقد قتلت إسرائيل أسرى المسلمين وتاجرت في أجسامهم ولم يعدوا هذا من الإرهاب.55

ثم إن الحروب التي خاضها المسلمون عبر التاريخ ليست إلا حروبا دفاعية، وكانوا دائما يميلون للمسالمة إن مالت لها العدو، وذلك تبعا للتوجيه الإلهي:» وإن جنحوا للسلم فاجنح لها»56 حتى إن ما يسمى غزوا إسلاميا لإسبانيا مثلا، يقول جارودي: « لم يكن غزوا عسكريا بدليل أن عدد سكان إسبانيا كان حوالي عشر ملايين نسمة في حين أن عدد فرسان العرب في أرض إسبانيا كانوا حوالي سبعمائة ألف، وإنما لعب الفوق الحضاري دورا حاسما.»57ويضيف جارودي أن علاقات الإسلام بالمسيحية:» ليست متنافرة، فقد كان الإسلام أقل تعصبا: القرآن يجل يسوع، بينما يقصى دانتي في الكوميديا الإلهية محمدا في الجحيم مع أتباعه»58.

وحتى إذا اعترفنا مع هنتنغتون بأن هناك حركات إسلامية متشددة، فتهديدها في الواقع موجه ضد دولها، وهذا ربما من أجل الوصول إلى السلطة. إن الصدام هو بين المسلمين أنفسهم قبل كل شيء.

وإذا عدنا إلى التاريخ وبحثنا عن المسؤول عن الدماء التي سالت والأرواح التي أزهقت على الأقل في القرنين التاسع عشر والعشرين، فإننا سنبرئ المسلمين منها تماما، وترتد المسؤولية كاملة إلى الحضارة الغربية حضارة المذابح المليونية. ففي حربين عالميتين وحروب أخرى في مختلف بقاع الأرض، فإن ما لا يقل عن 167 مليون نسمة لقوا مصرعهم في مذابح هذا القرن ومعظمهم مسؤولية الحضارة الغربية، وليس للإسلام علاقة بذلك، وبالتالي كيف يمكن أن يقول حدود الإسلام الدامية59. وبأي حق نصف الإسلام بأنه دين إرهاب وعنف!!

وبالنسبة للصراع في يوغسلافيا بين المسلمين والكروات الكاثوليك والصرب الأرثوذكس الذي يعتبره هنتنغتون الدليل القاطع على عدم تعايش الإسلام مع الأديان الخرى، فإن جعفر صاحب قد بين أن العامل الديني كان مجرد واجهة تستخدمه أطراف الصراع. فهو يرى أن هناك فرقا كبيرا أن نقول إن هناك صراعا دينيا وقولنا هناك صراع استخدم الدين فيه استخداما مقصودا. وقد كان الشارع اليوغسلافي يمقت التفرقة الدينية أو العنصرية. والدليل على ذلك وجود سبعة ملايين زيجة مختلطة دينيا. إن حقيقة الصراع في يوغسلافيا هي أنه صراع سياسي على السلطة استخدمت خلاله كل الوسائل المتاحة أمام الأطراف المتصارعة، ومن تلك الوسائل العامل الديني60.

نعم لحوار الحضارات، لكن بأية شروط!

إن حوارا للحضارات هو البديل الملائم لنظرية الصدام، لكن المطلوب هو أن يكون حوارا فعالا ومتكافئا بين الأطراف؛ معنى هذا إن الحوار الحقيقي يقوم على أسس وشروط معرفية ومنهجية وحتى اقتصادية ونفسية، وربما كانت الأخيرة شرطا للأخرى؛ ذلك أن

الحوار يقتضى التخلص أولا من الحواجز النفسية لدى الأطراف المتحاورة. إن ثمة عقدا نفسية ينبغي أن يبرأ منها الجميع: عقدة ماراتون* بالنسبة للغرب كما سماها جارودي، وهي عقدة تعبر عن نزعة التفوق. وفي المقابل نجد عقدة الدونية التي ابتلي بها اللاغرب. وهي تعبر وفي الوقت ذاته عن إحدى صور علاقة اللاغرب مع الغرب، هذه الصور يمكن حصرها في ثلاثة على الأقل، أولاها العداء والرفض التام للغرب والغربنة، وهذا هو المفضي إلى الصدام. هذه الصورة من العلاقة بين الغرب واللاغرب ساهم الغرب في خلقها؛ ذلك أنها-كما يرى جارودي- أحد الارتكاسات العديدة للاغربيين حيال الغرب، وتمثل في التمرد على الحضارة الغربية الذي أخذ أشكالا متنوعة من بينها تمجيد القيم التقليدية التي تقوم على التمركز، والشكل الآخر هو الرفض القطعي للحضارة الغربية.61

أما الصورة الثانية فهي صورة الأنبهار بالغرب والاعتقاد بأنه الكمال الخالص، وبالتالي فكل ما ليس غربيا يمثل النقص والتخلف، والنتيجة إزدراء الذات والارتماء في أحضان الغرب وتبني قيمه وثقافته بشكل تام، وهذا تعبير واضح عن عقدة الدونية؛ لأن» المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب» على عبارة ابن خلدون.

والصورة الثالثة يمثلها الطرف الداعي إلى الحوار، الذي لا ينبغي أن يوجد كفكرة أو موقف فقط، بل كحالة كونية، يندرج فيها الجميع وتخوضها كل الأطراف.

وهكذا فإن أول شرط من شروط تحويل نموذج الصدام إلى نموذج الحوار، هو التخلص من العقد النفسية لدى الأطراف المتحاورة، يقول حسن حنفي وهو يتحدث عن أول شرط من شروط الحوار الثلاثة:«إن الحواريين الثقافات ليس ممكنا إلا إذا كانت

* ماراتون اسم لإحدى معارك حروب البيلوبونيز بين اليونان والفرس، يعتبرها الغرب رمزا لانتصار الحضارة الغربية على " البرابرة "، وأسطورة ماراتون هذه ستجد شكلا لها أيضا في معركة بواتي سنة 732 التي صورها المؤرخون الغربيون على أنها مقاومة الحضارة الغربية للبرابرة (المسلمون هذه المرة)، مقاومة الخير للشر، وهي تتكرر اليوم في "الانتصار" الذي حققه الرئيس بوش في حربه على أفغانستان والعراق.

متساوية. فما دام هناك مركب التفوق للمركز[الثقافة الغربية] ومركب النقص لثقافات المحيط [الثقافات اللاغربية]، فإن نموذج الصراع هو الذي يسود. إن مضاعفة مراكز الثقافات بقيمة متساوية يسمح بوجود علاقات ذات معنيين: التزامات متبادلة، وتعليم وإثراء متبادلين.»62

وتخلص الغرب من عقدة ماراتون يسمح له بفهم ثقافة الآخر. فهمٌ « يستلزم تحولا كبيرا في عقليتنا الغربية وجهدا كبيرا في التواضع الفكري وفي القبول»63. لكن يجب أن نضيف إلى ذلك قبول اللاغرب للغرب والنظر إليه نظرة نسبية.

وماذا بعد ذلك؟ علينا أن نرفض التشويهات المتبادلة، والتنازلات. فالحوار لا يقوم على هذا النحو، بل لنطلب من الكل أن يصبح ما هو64؛ أي رفض محاولة إدخال الآخرين إلى الدين المعتنق كالتمسيح مثلا. إن حوار الحضارات يقوم على نسبية المعرفة، إنه «ليس بجائز إلا إذا اعتبرتُ الإنسان الآخر والثقافة الأخرى جزء من ذاتي يعمر كياني ويكشف لي عما يعوزني. إن هذا المعنى الذي تتحول فيه علاقة الأنا بالآخر، هو ما عبر عنه غابرنيل مارسيل- يقول ألكسي جورافسكي-حيث إنه وفقا لرأي هذا الفيلسوف، بدلا من العلاقة بين الذات والموضوع-«أنا» و«هو» تحل«الذاتية بأبعادها المطلقة»، أي علاقة الذات نحو ذاتها، بحيث نستوعب «الآخر» ك» وجه ثان « للذات. فيصبح ذلك « الآخر « أنت»(نفسك)، و« لكن بُعدك الأخر»، وبهذا الشكل يجب أن يكون التواصل الحي والشخصي بين الـ«أنا» والـ« أنت»»65. لكن التواصل فيما يردف جورافسكي- لكي يصبح ممكنا، « لا بد من معرفة عميقة وفهم دقيق «للآخر»، أي كما يقول ج.مارتين:»القدرة على جعل ذات الآخر ذاتي أنا»»66

وهكذا فإن حوار الحضارات هو بمثابة الثورة التي ينبغي أن تحدث فتقلب موازين القوى والرؤى والنظرة إلى الآخر، وانفاذ هذه الثورة يستلزم في نظر جارودي بالضرورة مايلي:

أولا: إن لدراسة الحضارات اللاغربية في مجال الدراسات منزلة تعادل بأهميتها على الأقل أهمكية الثقافة الغربية. إن هذا الشرط يعني الاعتراف بإسهامات الآخرين في الحضارة الغربية؛ إنه شرط يتعلق بالمساواة في التأريخ-وهو الشرط الثاني لدى حسن حنفي- فطالما بقيت أوروبا-فيما يرى- مركز التاريخ، وحيث هي ذروة الثقافات، فإن نموذج الصراع سيبقى. إن ثقافات المحيط يجب أن تلعب دورا متساويا في كتابة التاريخ. فتاريخ العالم لم يبدأ من العصور الحديثة. إنه يبدأ قبل ذلك67.

ثانيا: أن يشغل مبحث الجمال منزلة تعادل بأهميتها على الأقل أهمية العلوم والتقنيات وهذا من أجل الحد من البعد الواحد للحضارة الغربية.

ثالثا: أن تعادل أهمية النظرية الأمامية- فن تخيل المسقبل- والتفكير في الغايات والأهداف التاريخ على الأقل68.

إن ثمة شرطا آخر- هو الثالث حسب حسن حنفي- يتمثل في ضرورة التخلص من الصور النمطية التي يصبغها كل واحد على الآخر في حالة نموذج الصراع. فصفات العبودية: الجهل، والتأخر، والتخلف، والرشوة، والديون، والتعذيب، وخرق حقوق الإنسان، والحروب الأهلية، والإرهاب، والفقر، والتبذير. والتحريم، وتعدد الزوجات، والبطالة، والتبعية، كلها أعطاها صاحب ثقافة المركز لثقافات المحيط. وفي المقابل فإنه في إطار عملية التحرر من المستعمر كان من الطبيعي في ظل الدفاع عن الذات أن يعطي المستعمَر صورة نمطية للمستعمِر، صفاتها: الاستعمار، والأمبرايالية، والعسكرة، والصهيونية، والعنصرية، والاستغلال، والأحتكار، والرأسمالية، والمركزية الأوربية، والتقتيل، والمادية، والغطرسة، وهذه باختصار صورة السيد69.

إن التخلص من الصورتين النمطيتين العبد/السيد، يتيح مساواة اقتصادية تحرر العبد من الخضوع للسيد الذي لا زال مستمرا مع الاستنزاف اللامحدود لثروات بلدان العالم

الثالث المتستر في كثير من الأحيان تحت مظلة الاستثمار الأجنبي، الذي يتم غالبا بشروط مجحفة ترهن خيرات ومقدرات البلدان المتعاقدة مع الشركات الغربية المستثمرة.

تلكم هي الشروط النفسية والمعرفية والاقتصادية في اعتقادنا. فماذا عن الشروط المنهجية؟ بمعنى أدق ما هي وسائل الحوار؟

إن الحوار الحقيقي بين الثقافات لا ينبغي أن يتم على مستوى النخب الثقافية فيتخذ شكلا أكاديميا، ويبقى الشارع الغربي واللاغربي بعيدا عنه. إن الحوار ينبغي أن يكون شاملا يضم رجال السياسة والمثقفين وعامة الناس. والوسائل في ذلك متنوعة منها الإعلام والمنظومة التربوية. إن تعلم الحوار «لا ينبغي أن يتجه إلى الأطفال وحسب، بل أيضا، في شكل تربية مستمرة إلى الجماهير بجملتها»70. ولهذا فإن الدعوة إلى الحوار يجب أن تبدأ من الكتاب المدرسي، فينشأ الأطفال على احترام الآخر، ثم تستمر عبر وسائط أخرى، فيمكن الاعتماد أيضا على المعارض الفنية التي يجب أن تعطى فيها الآثار الثقافية اللاغربية الدرجة نفسها من الاهتمام، وكذلك على الألعاب الأولمبية والموسيقى والأفلام، فهذه كلها وسائل بإمكانها أن تعرّف بالآخر.

على هذا المنوال يمكن أن يتحقق، في وقت قريب نسبيا، الانقلاب الكبير في منظور الثقافة العالمية. لا من أجل إنكار، أو نفي، الثقافة الغربية بل من أجل إشباع الصبغة النسبية عليها ومن أجل البرهان على أننا لن نتوصل إلى حل المشكلات الرهيبة التي لا تزال تطرحها بالانطلاق منها وحدها71.

وماذا عنا نحن المسلمين تحديدا؟

إن المسلمين هم المعنيون بهذا الحوار بالدرجة الأولى، وهذا بالنظر إلى تصور الساسة الغربيين ومنظريهم وعلى رأسهم هنتنغتون، وكذلك إلى ما يحدث اليوم في العالم الإسلامي، فلا يكاد يمر يوم في البلدان الإسلامية دون أن تسفك فيه دماء المسلمين، وفي الوقت فسه نحن الذين ندان، إننا الضحية تصبح على يد القاضي الجلاد متهمة، وليس هذا

فحسب بل إن الإسلام دين التسامح والرحمة هو الذي أصبح في قفص الاتهام. ولهذا فإن هنالك شرطا ضروريا يخص المسلمين قبل أن ينخرطوا في أي حوار مع الغرب. إن على المسلمين أن يدخلوا في حوار داخلي فيما بينهم، حوار كفيل بأن يوحد المجهودات ويتجاوز الخلافات الفرعية التي تنهك قوى الأمة وتكبلها عن شق مسيرة التطور والخروج من دائرة التخلف الحضاري. إن انتصار المسلمين في معركة الصراع الحضارتي، الذي يفرض عليهم حسب توجيه هنتنغتون وأمثاله، يقتضى تجاوز انقسام الذات الإسلامية إلى ذوات متناطحة متطاحنة. وإن كان ثمة من صراع حضاراتي فلنجعله « فرصة لنبني من جديد حضارتنا ولنعيدها للزعامة والريادة»72. إن المعركة كما أوصى مالك بن نبي معركة داخلية لحل قضية التخلف على أساس حضاري، يهيء الظرف الملائم كي يستطيع العالم الإسلامي دخول المعركة العالمية مصفى من عقده73.

خاتمة

في الأخير إن خطاب صدام الحضارات ليس خطابا ساذجا كما يحاول تصويره البعض، بل هو خطاب واع بالأهداف والغايات التي يرمي إليها، لأنه يصدر عن البراغماتية السياسية الأمريكية، وصحته بالنسبة لنا نحن المسلمين نلتمسها في ترجمته إلى أفعال، لا تخطئها العين اليوم إذا ما تصفحنا الأحداث المتلاحقة في ساحة العالم الإسلامي. إن وعينا بهذه الحقيقة هو شرط دخولنا في حوار حقيقي وواقعي.

الهوامش

1. صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، تعريب: مالك عبيد أبو شـهيوة ومحمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشـر والتوزيع والإعلان - ليبيا، ط1، 1999 ، ص 93
2. المصدر نفسه، ص 174.
3. المصدر نفسه، ص 174.
4. المصدر نفسه، ص 533.
5. أحمد شـلبي، صراع الحضارات في القرن الحادي والعشـرين ودور الحضارة الإسلامية في هذا الصراع، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1996، ص 19.
6. Frédéric Encel,» Des variables mais pas des constants Panoramiques «, ,(Vous avez dit « Choc des civilisations » ? 3 trimestre -2004, N°68 , Ed. Corlet, France, P. 50.
7. روجي جارودي، حوار الحضارات، تعريب عادل العوا، عويدات للنشـر والطباعة، بيروت- لبنان، ط4، 1999،ص 15.
8. روجي جارودي، مشروع الأمل، دار الآداب – بيروت، 1977 ، ص36.
9. أحمد شلبي، مرجع سابق، ص 19.
10. Maher El Sherif, « Les deux thèses de la fin de l'histoire et du choc des civilisation », Panoramiques , op. cit. P, 30
11. Michel Serceau, « Culture de la peur et culture de l'ennemi » Ibid, P, 85
12. Ibid., p,89
13. Moustapha Al Razrazi Al-Moustafa, « Huntington n'a raison que pour le court et le moyen terme » , Ibid, 55
14. صموئيل هنتنغتون، المصدر السابق، ص 65 .
15. نفسه، ص 519-518.
16. أحمد شلبي، مرجع سابق، ص 11.
17. نفسه، ص 12 .
18. ينظـر Walid El Khachab, « La chasse aux non-modernes », Panoramiques, op. cit, P, 31-41.
19. ينظـر Martin Cyr Hicks, «Censure et pragmatisme identitaire dans le choc des civilizations»

Ibid, 18-22.

20. ينظر روجي بارودي ، البديل، ترجمة جورج طرابيشي، منشـورات دار الآداب- بيروت، ط2، 1988، ص7.

21. روجي جارودي ، حوار الحضارات، مصدر سابق، ص 7.
22. المصدر نفسه، ص 129.
23. نفسه، ص 77.
24. نفسه، ص 79.
25. نفسه، ص 106.
26. صموئيل هنتنغتون، مصدر سابق، ص 106.
27. نفسه، 108.
28. Walid El Khachab, Panoramiques op.cit, P.34
29. Mahmoud Amin El-Alem « du capitalisme des Lumières à l'hégémonie», Panoramiques, op.cit, P.66
30. عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب للطباعة والنشر – الجزائر، 1984، ص144.
31. عبد القادر رزيق المخادمي، النظام الدولي الجديد: الثابت والمتغير، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، ط2، 2003، ص 126-125.
32. روجي جارودي، حوار الحضارات، مصدر سابق، ص 138.
33. نفسه، ص 217.
34. صموئيل هنتغتون. المصدر السابق، ص 233.
35. عبد القادر زريق، مرجع سابق، ص 131.
36. Maher El Sherif, Panoramiques, op.cit, p .30
37. روجي جارودي، حوار الحضارات، ص .169
38. ينظر: «مستشرق فرنسي في دفاع مجيد عن الإسلام: «وعود الإسلام» لجارودي»، مجلة الدوحة، تصدر عن وزارة الإعلام بدولة قطر، العدد 72 ذو الحجة 1402هـ / أكتوبر 1972م.
39. محمد جابر الأنصاري، «المفكر الفرنسي روجي جارودي ورحلة فكر من المادية إلى الإسلام» مجلة الدوحة، العدد 74 صفر 1403هـ / ديسمبر 1972م، ص13
40. المصدر السابق، ص 17.
41. نفسه، ص 77.
42. نفسه، ص 30
43. نفسه، ص 30
44. نفسه، ص91
45. نفسه، ص 40
46. نفسه، ص 78

47. صموئيل هنتنغتون، المصدرنفسه، ص 370.
48. نفسه، ص 382.
49. نفسه، ص 383.
50. نفسه، ص -449 450.
51. نفسه، ص 450.
52. نفسه، ص 440.
53. مرجع نفسه، ص 21.
54. المصدرنفسه، ص 452.
55. أحمد شلبي، مرجع سابق، ص 53.
56. الأنفال:الآية 62.
57. روجي جارودي، حوار الحضارات، مصدرسابق، ص 83.
58. نفسه، ص 52.
59. مالك أبو شهيوة، المصدرنفسه، ص 48.
60. ينظر: جعفرصاحب:»دور الدين في الأزمة اليوغسلافية»، المستقبل العربي، العدد 225(11 1997-).
61.جارودي، حوار الحضارات،ص164.
62 . Hassan Hanafi, « Cultures :conflit ou dialogue ?», Panoramiques, op.cit., p. 43.
63. جارودي، المصدر السابق،ص 106.
64. نفسه، ص 107.
65. أليكس جورافسكي، الإسلام والمسيحية، ترجمة محمد الجراد، عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، 1417ه/1996م، ص169.
66. نفسه، ص169.
67. Hassan Hanafi, op.cit., p.43
68. جارودي، المصدر السابق، ص 159.
69. Hassan Hanafi, op.cit., p.43
70. جارودي، المصدر السابق، ص 159.
71. نفسه، ص 161.
72. أمد شلبي، مرجع سابق، ص 304.
73. عبد اللطيف عبادة، مرجع سابق،147.